بسم الله الرحمن الرحيم - من مكة المباركة - في ١٤٣٤/١١/٨.

(معنى التوحيد والشرك - بجمل - أو بخالف أو يتجنبه الدعاة)

أول وأعظم ما أمر الله به وأرسل به رسلا مبشرين: (إفراد الله بالدعاء وغيره من العبادات)، وأول وأعظم ما نهى الله عنه وأرسل به رسلا منذرين: (دعاء غير الله معه وغير ذلك من عبادة غير الله).

قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون﴾، وقال تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾، وقال تعالى: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه وتعالى عما يشركون﴾، والآيات في هذا كثيرة جدا.

وكان أكثر عبادة المشركين غير الله تعالى: دعاءهم غير الله معه أو بدونه؛ قال الله تعالى: ﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾، وقال تعالى: ﴿وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾، وقال تعالى عن إبراهيم صلى الله عليه وسلم: ﴿وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا﴾، وقال تعالى: ﴿ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون﴾، وقال تعالى عن الذين يدعون الملائكة والرسل والصالحين: ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه﴾، وقال تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأنما يدعون من دونه الباطل﴾، والآيات في هذا كثيرة جدا.

ولكن أكثر الدعاة وخطباء الجمعة إذا ذكروا هذا الأمر - ولا يكادون يذكرونه - فبمجرد لفظ التوحيد والإيمان، ولفظ الشرك والكفر دون تفصيل.

وبمجرد لفظ التوحيد والإيمان يظن أكثر الناس أنهم ملتزمون به ولو دعوا غير الله سواء كانوا قبوريين (منتمين للسنة أو الشيعة) أو الدروز أو لليهودية أو النصرانية)، فيعكفون على التقبر طالبين من صاحب الحد.

والتوحيد عند جل دعاة التبليغ يعني التربوية، وعند دعاة حزبي الإخوان المسلمين والتحرير يعني الحاكمية، ويسمي الدروز والنصارى أنفسهم: (الموحدون) بهذا اللفظ، ولو كان الجميع يدعون التلبس به.

ويقع أكثر المسلمين في دعاء غير الله متقربين به إلى الله ويحسبون أنهم مرشدون.

ولهذا حرص دعاة التوحيد (منذ عادت الوثنية إلى بلاد المسلمين بعد القرون الخيرة) حرصوا على البيان والتفصيل بتقسيم التوحيد إلى: إفراد الله بالألوهية، وإفراده بالربوبية، وإفراده بالأسماء والصفات الثابتة بالوحي.

ومنذ سمعت بشغب الجاهلين والمبتدعة على هذا التقسيم اختزت: (إفراد الله بالدعاء وغيره من العبادات، وإفراد الله بأسمائه وصفاته وأفعاله)، ويجمعه قول الله تعالى: ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾، أي: لا نعبد إلا الله ولا نطلب المدد إلا منه ﴿إلا فيما أقدر الله عبده الحي عليه﴾.

وأكثر ما نقل من العقائد من أبي حنيفة - إن صح النقل عنه - إلى ابن عثيمين رحمهما الله - قصرته على (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره)، ولا أظن صوفياً ولا قبورياً يرفض مثل هذا النص إذا أضفنا إليه بيان الشرك الأكبر على حقيقته منذ قوم نوح: تقديس نصب ومقامات ومزارات وأضرحة الأنبياء والصالحين ودعاء أصحابها مع الله (أو بدونه كما بينه ابن تيمية وتلامذته في القرون الوسطى ثم ابن عبد الوهاب وأمراء وعلماء دولة آل سعود منذ منتصف القرن الثاني عشر الهجري فجاؤا بالعجب العجاب للسنة والشيعة.

وأثناء تهذيبي تفسير الجلالين وابن كثير وابن جرير وابن سعدي رحمهم الله رأيت أكثر المفسرين (الأقدمين منهم والمحدثين) يسمون آلهة المشركين بعد مشركي قريش: (أصناماً وأوثاناً وأنصاباً)، والمشركون المنتمون للإسلام يسمونها مقامات ومزارات ومشاهد وأضرحة، ويظنون أنهم بعيدون عن محادة عباد الأصنام، ويسمون معبوديهم أنبياء وأولياء فيظنون أنهم بعيدون عن محادة عباد الأشجار والأحجار، والله سمى معبودي مشركي الجاهلية بصريح اللفظ: أولياء، في مثل قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾، وسمى الله عبادة مشركي الجاهلية بصريح اللفظ: دعاء كما في الآيات السابقة، وهذا ما يفعله أو يقره أو لا ينهى عنه أكثر المنتمين للإسلام والسنة والشيعة وغيرهم، فالواجب تسمية الأشياء بأسمائها حتى يستفاد من الدعوة إلى صلاح المعتقد، وينقذ المسلمون من وثنيتهم